شـلر

للكاتب الكبير توماس كارليل

ترجمة الأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

— ٧ —

اعتبر المزاح فى الشعر أول دليـل من دلائل عـذوبته ولطفه وخفته . والذى يعوزه هذا ، ولو كان يمتلك جميع المواهب الأخرى ، يمتلك نصف ذهن لأن نظره لا يفارق الأشياء العلوية ليرى الأشـياء الدنيوية المحيطة له . وينفرد شلر من بين جميع الشعراء العباقرة بمثل هذا القصور . لأنك لن تجد فى كل كتاباته دليلا واحداً على هذه الروح ولا حتى محاولة فى هذا الاتجاه . لأن طبيعته نفسها خالية من ذلك . وكانت مشاعره جـدية لدرجة لا تسمح لنفسها باتخاذ أى أسـلوب فيه أى نوع من المرح أو المزاح . وهـكذا لا يمكن الـكشف عن أى نوع من الهزل أو الـكاريكاتور أو السخرية . هذه الأشياء التى هى جوهر المزاح — فى أى شئ كتبه شلر . فؤلفاته مفعمة بالجد الـكدود ولذا يعتبر أرصن كاتب . ولـكننا مع ذلك نجد فى بعض بحوثه النقدية وخصوصاً كتابه (الرسائل الجمالية) ما يدعى (بالنازع الرياضى) وهو يعتبر أعلى هدف فى ثقافة الإنسان . وهذا يدل دلالة بينة على أنه عرف معنى الهزل وأهميته بالنسبة إلى فكره ، ولو أن ذلك كان غريباً عنه وبعيداً منه ... ومع ذلك فهو لم يدرك هذه الذروة التى رآها بكل هذا الوضوح والجلاء . فالروح الرياضية ظلت معه مجرد نظرية إلى الأخير . وباستثناء كتابه (ولنشتاين لاغر) — الذى يظهر فيه الهزل باهتاً ضحلا — فإن محاولاته فى هـذا الخصوص — على قلتها — كانت ثقيلة جامدة . وميزانه فى كل شئ كتبه لا تعدو الشدة الصارمة والنبرة الحماسية الجدية ، والفخامة البعيدة عن الرشاقة ، بينما نرى الخفة والروح الرياضية معدومة فيه تماماً . لقد كانت عنده فطنة ولـكن هذه الفطنة لم تكن أم مواهبه . وربما يرجع ذلك إلى إخلاصه واستقامته فى استخدام فطنته ، وانصبابه على تبين العـلائق العميقة بين الأشياء بدلا من ملاحظة تصادماتها الوقتية . زد على ذلك أنه كان يقصد (الإثبات) لا (النفى) — أى أنه كان يعتبر ما هو موجود أنه أحسن ما هو موجود — وفى النفى وحده يظهر عامل الفطنة الهازلة . لقد وضعنا هذه الملاحظات للاشـارة إلى حدود عظمة شلر والفرع الذى اختص به . وهذا لا يعنى نكران حقيقة هذه العظمة . أما شعوره بالحقيقة تأملا وعملا وإدراكه البهيج العميق للطبيعة والانسجام الحى الذى بواسطته يتمكن من تصوير ما هو جليل وعظيم فى الطبيعة ، فأمور يعرفها كل من قرأ كتبه ، وعليـه فليس من حاجة لتذكيرهم بها . وهو يعد فى طليعة الشعراء الذين كتبوا فى البطولات التراجيدية الشجية ، إذا لم يكن أعظمهم إطلاقاً . وهناك أمام دارسى شلر المثابرين جهاد شـاق قبل التعرف على آرائه ، لأن الـكنوز الخفية من الفكر والشعور لم تزل مغطاة بغطاء النسيان . وهناك نغمة فى بعض كتبه الأخيرة فيها لحن العوالم العليا مجسداً فى الفن . وعليه فليست النواقص الطبيعية والعرضية التى عرضناها فى عبقريته ، بمانعة من اعتباره من أعاظم الشعراء ، وهـذا ليس غريباً فى شئ لأن كثيراً من الشعراء العظام كانت لديهم هذه الهنات . ولنضرب لذلك مثلا ، ملتون ، فهو يقاسمه فى كثير من معايبه ، لأنه كان يركن إلى الجزالة فى اللفظ والفخامة فى الأداء ، ويتطلع إلى الأعلى وإلى كل شئ جدى ، أما ما يخص شؤون الحيـاة الأرضية فتراه قاصراً فى فهمها وإدراكهـا . وهو كذلك ليس لديه من المزاح إلا القليل . وأسـلوبه خشن فى الهجاء مع توكيد على السخرية والتهكم وابتعاد من المرح والروح الرياضية اللعوب . أما من الناحية الإيجابية فهناك تشابه أكبر بين هاتين الشخصيتين ، ولو أن شلر عاش فى ظروف أخرى ، ولم يمتلك تلك القوة الروحية العنيفة ولا تلك القابلية الضخمة ، ولـكنه كان يشبه ملتون فى شدته وتركيزه على ما هو سـام فى الطبيعة والفن . وقد عشق — كل على طريقته الخاصة — ذلك السناء السماوى — وعبده عبادة قلبية صادقة . ولـكن طبيعة شلر يعوزها الانسجام الفنى الذى امتاز به ملتون . وقد عرف ملتون بعقمه وعذوبة موسيقاه المترابطة . ومع ذلك ، فعند شـلر شئ من القوة النقية المتفجرة

والنغمات العذبة التي تشبه في جلالها وعمقها ونغماتها نغمات ملتون الخالدة

امتاز شلر في العالم كمؤلف دراماتيكي ، وغالبا ما نشعر بأن القدر وليس الميل الطبيعي هو الذي قاده في هذا الاتجاه ، لأن موهبته كانت غنائية (lyrical) أو بطولية (Epical) أكثر مما كانت دراماتيكية . لقد عاش منطويا على نفسه ، وهذا ما جعل عمله في تصوير العالم الخارجي أمراً صعباً . لا بل إن كثيراً من شعره — كما أشرنا من قبل — هو خطابي أكثر مما هو شعري . ومع ذلك ، فالنار النقية الوهاجة ظلت مستعرة في أعماق روحه ، هذه النار التي لا تجد متنفساً إلا في الشعر . أما بقية سجيته فكانت أميل إلى الصرامة العادية ، مما جعل تطور قابليته الشعرية أمراً في غاية الصعوبة والإجهاد . فهذا العنصر المسيطر النقي لم يكن يتطور التطور المطلوب ، لأنه كان كالنهر البطيء الجريان في وسط صخور نائئة كبيرة . لقد تكلمنا كثيراً عن حمية شلر غير المجزأة في التثقيف الذاتي وفي التقدم الذي انجزه بالرغم من الصعوبات التي تخطاها . يتجلى لنا ذلك بكل وضوح إذا نحن قارنا بين مؤلفاته المبكرة والمتأخرة . وبهذه الواسطة سنقدم لقرائنا الذين لم يتعرفوا على شلر فكرة واضحة عن شخصيته الشعرية ، لأن الوصف وحده غير مجد في ذلك . دعنا نأخذ (اللصوص) لأنها أول إنتاجه ، هذا الإنتاج الذي يدعوه شلر (بالعملاق الذي ولد في التزاوج غير الطبيعي بين العبقرية والعبودية) ؛ ولا شك أن النار المتأججة في هذه القطعة حتى في الفقرات المنفصلة . وللمنظر الآتي معجبون حتى في ترجمتنا الإنجليزية العادية الماثلة وهي المنظر الثاني في الفصل الثالث

« اللصوص »

منظر ريف على الدانوب

اللصوص مجتمعون في المرتفع تحت الأشجار الوارفة ؛ الخيل ترعى في سفح التل

مور : لا أقدر على السير أكثر (يرمي بنفسه على الأرض) . إن أطرافي تؤلمني وكأنها سحقت سحقاً . إن لساني لا فح من العطش (يتسلل شفارز خلسة) . أرجو أن تجلبوا لي قليلا من الماء من الساقية ؛ ولكنكم متعبون حتى الموت .

شفارز : وكذلك الخمر موجودة في الأدنان

مور : أنظر ما أجمل موسم القطاف ! إن الأشجار تتكسر تحت أثقالها التي تنوء بها . والأمل في الكروم كبير

كرم : إن السنة سنة خير

مور : أتظن ذلك ؟ وإذن فتاعب الإنسان في هذا العالم ستجازى . ومع ذلك فقد تدهمنا عاصفة برد فتدمر كل شيء

شفارز : هذا محتمل تماماً . قد يدمر كل ذلك قبل الحصاد بساعتين

مور : وهكذا أقول أنا . سيتدمر كل شيء . لماذا ينجح الإنسان . فيما يتعلمه من النملة ، بينما هو يفشل فيما يجعله شبيهاً بالآلهة ؟ أهذا الهدف الحق من مصيره ؟

شفارز : أنا لا أعلم ذلك

مور : لقد قلت حسناً ، وأجدت عملا ، إذ أنك لم تحاول أن تعرف ذلك ! — أخي — لقد نظرت إلى الناس وإلى مخاوفهم التافهة ومشاريعهم العظيمة وخططهم الآلهية ومشاغلهم الوضيعة ومسابقاتهم الدهشة لإدراك السعادة ؛ فمنهم من يعتمد على عدو حصانه ، ومنهم من يعتمد على دابته ، ومنهم من يعتمد على قدميه ، وفلك الحظ دائر بسرعة جنونية ، ومثل هذا الفلك يقرر مصير كثير منهم . وكل يسعى لا هثاً للحصول على الجائزة ، ولكن البطاقات كلها فاشلة . إنها ، يا أخي ، مأساة تستنزل الدمع الدامي ولو أنها تستثير الضحك

شفارز : أن غروب الشمس رائع جدا

مور : (متوارياً عن الأنظار) وهكذا يموت البطل ليعيد

كرم : يظهر إن هذا أثارك

مور : عندما كنت صبيا ، كانت فكرتي الحبيبة أن أعيش كذلك وأموت كذلك (بألم دفين) لقد كانت فكرة صبي وحسب

كرم : آمل أن يكون ذلك حقا !

مور (ينزل قبعته على وجهه) يوم كنا ولا تسل كيف كنا ، دعوني . وحيدا ، أيها الرفاق

شفارز : مور ! مور ! ماذا ؟ يالشيطان ! كيف تغير لونه !

كرم : ها ! ماذا يؤلمه ؟ أهو مريض ؟

مور : مرت أيام لم أكن أستطيع ان أنام فيها إذا أنا نسيت صلاة المساء ...

كرم : هل أنت مجنون ؟ هل تترك مثل هذه التخيلات والوساوس لتهذبك من جديد ! ؟

مور : (يضع رأسه على صدر كرم) أخى ! أخى !

كرم : تعال ! لا تكن طفلا ، أستعطفك بالله ...

مور : آه لو كنت طفلا ! آه لو كنت وحيداً !

كرم : بوه ! بوه !

شفارز : مرحى . تطلع إلى المنظر البديع والمساء الجميل

مور : نعم أيها الأصدقاء ، إن هذا العالم بديع حقا

شفارز : نعم ، هذا حق

مور : إن هذه الأرض رائعة

كرم : حقا ، حقا ، وهو كذلك

مور : (مستلقياً على ظهره) ولكنى بشع الخلقة فى هذا العالم الجميل وغريب الشكل فى هذه الأرض الرائعة

كرم : دعنا من ذلك

مور : سذاجتى ! سذاجتى ! أنظر ، إلى الأشياء كيف تضحى تحت أشعة الربيع الهادئة : لم يجب على أن أتنشق عذاب الجحيم من مساوب مسرات الحياة ؟ والناس كلهم مسرورين تربطهم رابطة السلام ؛ والعالم عائلة واحدة ترعاها عين الأب الحدب فى الأعالى ، ولكنه ليس أبى ! وأنا وحدى طريد شريد ، وبعيد عن مجتمع الأخيار ، ليس لى ولد يلغ باسمى ، وليس لى أمل فى نظرة واهنة . ممن أحب ، ولا رجاء فى عناق صديق حميم . أنا محاط بالقتلة ، والأفاعى تفح حولى ، أنا مندفع إلى خليج القناء على تيار الإثم المتدفق

شفارز : (إلى الآخرين) ما هذا ؟ لم أره هكذا قبلا أبدا

مور : (بحزن مثير) آه ، لو كان فى إمكانى الرجوع إلى بطن أمى ! — آه ، لو ولدت متسولا ! كلا ! أيتها السماء أنا لا أجرؤ أن أصلى كى أكون واحدا من العمال حتى أعمل طول نهارى . أعمل حتى يتفطر صدغى دما ، لأشترى لنفسى راحة نوم ظهيرة واحدة . وعزاء دمعة واحدة

كرم : (إلى الآخرين) صبرا لحظة واحدة ، لأن النوبة عابرة

مور : لقد فات الزمان الذى كنت أتمكن من البكاء فيه . آه على أيام السلام ، يا قلعة والدى ، أيتها الوديان الخضراء ! واها على مناظر طفولتى ! ألا تعودين إلى مرة أخرى بتأوهاتك المكررة العاطرة لتهدئ روع قلبى المستعر . اندبى معى أيتها الطبيعة . إن هذه الأيام لن تعود مطلقا لتطفئ النار المشتعلة فى صدرى . إنها ذهبت ! ذهبت ! ولن ترجع

« أو خذ مثلا مناجاة مور فى موضوع الانتحار ، فى غابة فى منتصف الليل بين اللصوص الراقدين »

(يترك القيثارة جانبا ، ويسير صعودا ونزولا فى تفكير عميق)

الكلام صلة

يوسف عبد المسيح ثروت

مختارات من الأدب الفرنسى

شعر ونثر

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصير وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها

وثمنه ٢٥ قرشاً هذا أجرة البريد